فــــؤاد نـصـر الديـن حـســين

عضو اتحاد كتاب مصر. له العديد من الأعمال القصصية.

ساعة جيب جدي

-1-

بدأ الشيب يغزو الرأس المثقل بالهموم، ومازلت أفكر في ساعة جيب جدي صغيرة الحجم التي توارثت عبر الأجيال حتى جاءته في الميراث، كان دائماً يمسك بها بين أصابعه، يحبها جدي ويعشقها، يطيل النظر إليها، والاستماع إلى دقاتها التي تنطلق في أوقات محددة، دقات هادئة متناغمة. يحتفظ جدي بها في جيب جلبابه، يحافظ عليها بشكل ملفت مما جعلنا نشك بأن لا شيء له في هذه الحياة سوى المحافظة على هذه الساعة التي يقول عنها إنها إحدى بنات ساعة هارون الرشيد التي أهداها إلى شارلمان الملك.

وازداد تمسكه واحتفاظه بها لدرجة رفضه التفريط فيها أثناء سنوات القحط والحرمان التي مرت عليه فلم يفكر يوماً في بيعها أو الاستغناء عنها والعيش بثمنها، وحينما عرض عليه بعض تجار التحف مبلغاً خيالياً لشرائها منه رفض رفضاً شديداً كطفل صغير يريدون سلب لعبته منه، واحتضنها في صدره كعاشق يحتضن حبيبته الجميلة. وقبيل وفاته ألقى وصيته الأخيرة على أبي بالاعتناء والمحافظة على ساعة الجيب. ساعة الأجيال المتوارثة، نفس الشيء الذي فعله جدي فعله أبي معي؛ فورثت الساعة بعدهما.

حينما جاءتني قبضت عليها يدي، وضعتها أمام عيني أتطلع إليها. أراقب تحركات ثوانيها وسير عقاربها. أستمع بشغف لدقاتها المتناغمة كالموسيقى الناعمة بين الساعة والثانية. لقد شغلتني ساعة جيب جدي كثيراً. شدتني إليها. جذبتني لدرجة أنه لا يمر يوم إلا وأصاحبها فيه متطلعاً ومستمعاً ومحافظاً.. آه لهذه الساعة سحر عجيب ما إن تورثها حتى تعشقها، فلا تستطيع الفرار من الوقوع في دائرة سحرها...

- 2 -

بدأ الشيب يغزو الرأس المثقل بالهموم في شراسة، وبدأت أفكر في توريث الساعة لأحد أبنائي كما فعل جدي مع أبي، وأبي معي.

سألت نفسي: مَنْ أحق بها من أولادي؟ من سيعتني بها كما اعتنينا بها جدي، أبي، وأنا؟ شغلني السؤال كثيراً. أخذ مني مأخذاً كبيراً، حاولت اختبار أولادي لمعرفة أكثرهم حباً للساعة. فوجدتهم جميعاً على درجة واحدة من عدم الاهتمام. أصابني القلق بغزارة المتني، فالعمر يجري والساعة قابعة في خزانتي لا أعلم بعد من أحق بها.

صباحاً استيقظت من نومي والإرهاق يتساقط من جسدي. اتجهت إلى خزانتي بخطوات متهشمة. أتطلع إلى ساعة جدي كعادتي؛ فإذا بي أصاب بالذهول الذي زاد من قسوة إرهاقي. حملقت بعيني من جديد داخل الخزانة غير مصدق؛ فالساعة التي وضعتها بنفسي داخلها، والتي كانت في قبضة يدي. هذه الساعة تبدلت. أصبح مكانها واحدة أكبر حجماً. مددت يدي أسحبها من بطن الخزانة. حملتها بيدي. وضعتها فوق منضدة بالحجرة. تطلعت إليها. إنها نفسها؛ لكن حجمها ازداد. كيف جرى ذلك؟ ما الذي أصابها؟ أمسكت رأسي بيديّ خوفاً من الانفجار الذي أشعر بقدومه. تحركت خطوات داخل حجرتي أبحث عن المجهول. أبحث عن إجابة لسؤالي. رنوت ببصري إليها في دهشة؛ فإذا بالدهشة تزداد وتملأني. الساعة وياهول ما رأيت في هذه اللحظات كبر حجمها، ونما عما كانت عليه. إنها تزداد حجماً أمام عيني. رعبت. أصابني الخوف. صرخت بلا وعي.. النجدة.. النجدة.. النجدة.. لم ينجدني أحد. لم

يسمعني أحد. ربما لم ينطلق صوتي من جوف جوفي. أوشكت على السقوط في بئر الجنون. الساعة تضخمت داخل الحجرة، ودقاتها أصبحت مزعجة. تصم الآذان؛ بل تكاد تطيح بالجدران في الفضاء، فنموها يزداد ثانية بثانية. لا شك سيأتي الوقت الذي لا تتحمله الحجرة، بل البيت كله. يجب إنقاذ البيت من هذا التضخم الجنوني. فجأة انفجر البيت وتحولت ساعة جهب جدي إلى حيوان خرافي ضخم. فجّر البيت منطلقاً نحو الشارع يلتهم كل من يقابله من ناس، أشجار، سيارات، وحيوانات. لم يدع شيئاً إلا وأتى عليه. حول المدينة إلى خراب مدمر.. انتبهت لنفسي. استيقظت من غفلتي. احتضنت الساعة في صدري. خرجت بها من الشقة بحذر شديد، ثم عبرت الأبواب بصعوبة. انطلقت للخارج. حملت الساعة فوق كتفي لأتمكن من السير بها. توقف المارة بالطريق يتطلعون إليّ في دهشة. تعجبوا لكبر الساعة وحجمها. ظن البعض أنني سارق إحدى ساعات الميادين العامة. سمعتها بأذني.. الرجل سرق ساعة الميدان. أنقذتني التهمة من السقوط في بئر الجنون. ماذا لو وضعتها فعلاً في إحدى الميادين القريبة لتكون في الفراغ الفضائي ويستفيد بها كل الأهالي. ثم أقوم أنا بالتردد عليها وزيارتها يومياً؛ فلن أودعها وأرحل. سأعود إليها دائماً. الوصية يجب تنفيذها. المحافظة والاعتناء بساعة الأجداد المتوارثة. لكن أين أضع الساعة التي تنمو فوق كتفي؟ لا مكان لها الآن. هل أظل أبحث في الشوارع والطرقات عن مكان أضعها فيه. سألفت نظر

الناس والمارة بحملها فوق كتفي مثلما لفت نظر بعضهم. الآن يجب المحافظة على الساعة بعض الوقت في مكان آمن حتى أعثر على المكان المناسب لها. أين أضعها إذاً؟ فكرت قليلاً ثم تذكرت سطح منزلنا. أسرعت نحو البيت والساعة لاتزال فوق كتفي تنمو. دخلت بها من باب العمارة. صعدت الدرجات بصعوبة؛ فكثيراً ما كانت تتخبط بالجدران. وصلت لأعلى العمارة. فوق السطح. الفراغ كبير. لا شيء هنا سوى السماء والهواء وطبق الدش. أنزلت الساعة برفق. وضعتها وسط السطح، ثم جلست جوارها أسترد أنفاسي الضائعة. ماذا أفعل يا الله في هذا الميراث الجنوني؟

جاءتني فكرة. ماذا لو كتبت رسالة إلى حاكم المدينة أخبره بامتلاكي لأكبر ساعة بالمدينة، ورغبتي بالتبرع بها كيما توضع في أحد الميادين.

أسرعت إلى حجرتي أكتب الرسالة. دقت الساعة فجأة دقاتها المدوية في الفضاء الواسع؛ فخرج بعض الناس يتساءلون عن الرنين العظيم...

- 3 -

صباح اليوم التالي صعدت إلى سطح العمارة لرؤية ساعتي والاطمئنان عليها. التضخم زاد بشكل لا يصدقه عقل. هبطت الدرجات مسرعاً لتوصيل رسالتي إلى حاكم المدينة الذي

سـرعـان مـا استمـع إلـيّ بشـغـف. ثـم بـفـرحـة غـامـرة ثـم أرسـل مساعديه لمشاهـدة الساعة وكتابة تقرير عـاجل إليه. خـرج معي بـعـض المـوظـفـين وهـم يـتـعـجـبـون لحـديـثـي مـع حـاكـم المـديـنـة واهتمامه بهذه الساعة التي لا تعدو عن كونها ساعة كأي ساعة أخرى. وما الفرق والساعات في المدينة ذات أشكال وأحجام مختلفة؟ قاد أحدهم السيارة الحكومية متجهاً حيث أوجهه إلى بيتي. وأمام الباب الرئيسي للبيت وقفت السيارة، ثم هبطنا من أبوابها وصعدت بهم إلى السطح ليروا ساعة جيب جدي التي أصابتهم بالذهول فطافوا حولها متطلعين في إعجاب، ثم أسرعوا إلى مبنى الحاكم لتقديم تقريرهم إليه. وما هي إلا دقائق حتى أصدر أمره السامي بنقل الساعة من البيت إلى أحد الميادين العامة، فعاد مساعدوه مرة أخرى، ومعهم العمال فوق سيارة نقل كبيرة سرعان ما انطلقوا في عملهم بربط الساعة بحبال طويلة في مهارة وإتقان، ثم حملوها إلى حافة سور السطح، وأدلوا بها من أعلى العمارة إلى الشارع حيث بقية العمال الذين استقبلوها فوق السيارة النقل التي انطلقت إلى مبنى الحاكم الذي رأى الساعة فوق السيارة عبر نافذة مكتبه فازداد تعجباً لمنظرها، فأصدر أمره الفوري بوضع الساعة في أكبر ميادين المدينة. ميدان المحطة. استدعى المسؤولون ونش بلدية المدينة لرفع الساعة ووضعها بمساعدة العمال فوق عامود صخري يقف منتصباً داخل الحديقة الدائرية أمام باب محطة السكك الحديدية.

رميت بنظري صوب العامود الأثري الذي أقيم في ميدان المحطة ذكرى لنهاية الحرب التي كانت بيننا وبين الأعداء. صعد النظر إلى أعلى. إلى العامود الصخري. أنسب مكان توضع فيه الساعة. عُلقت ساعة جيب جدي بالحبال في بومة الونش الذي رفعها عالياً إلى أعلى العامود حيث قبعت فوق قمته في استرخاء. فجأة جاءت سيارة الحاكم. وقفت قرب الحديقة. أطل الحاكم منها تجاه الساعة القابعة فوق رأس العامود تدق دقاتها التي ملأت فضاء الميدان. ابتسم الحاكم فرحاً صادراً الأوامر العليا لمعاونيه بإعادة تجديد حديقة الميدان وسرعة الإعلان في الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية عن افتتاح الحديقة في ذكرى يوم الاستقلال. انتشر المختصون من مهندسين وفنيين وعمال يعملون في تخطيط الميدان وإعادة زراعة حديقته، بالإضافة لدهان المباني المحيطة بالميدان خاصة مبنى سكك حديد المدينة.

- 4 -

لم ينس حاكم المدينة دعوتي الخاصة لحضور الافتتاح الذي شرّفني فيه بإطلاق اسمي على أحد الشوارع الصغيرة المتصلة بالميدان بعد خطبة عصماء عن الوطنية والشجاعة والعمل من أجل رفع هامة البلاد عالياً وكلام كثير ليس له معنى عن واجبات المواطنين تجاه وطنهم الأم. ثم قلدني وساماً وسلمني مفتاح المدينة وأعلن اسمي على الشارع شارع حسن

الساعاتي. ثم قام بقص الشريط الحريري إيذاناً بالافتتاح الجديد لميدان ساعة المحطة وسط تصفيق الجماهير المحتشدة حول الميدان. هنا دقت الساعة دقاتها الراقصة في الفضاء الواسع فرحاً وسروراً مع فرح الناس الذين صفقوا في نشوى وسعادة.

أحسست أنا أيضاً بالسعادة لسعادة كل هؤلاء الناس لمحافظة الدولة على ساعة جيب جدي بأحسن وضع. لو كان جدي حياً لرضي بما فعلته تجاه ساعته، كذلك أبي الذي أراه يصافحني محتضناً في فخر واعتزاز؛ فهو يحب خدمة الناس وتقديم كل ما يفيد الجماهير. ساعتك يا أبي تخدم الجماهير؛ فكل الأنظار تتطلع إليها لمعرفة الوقت، وكل الأذان تستمع لدقاتها، وها هي أضافت لميدان المحطة جمالاً جديداً ورونقاً بهيجاً. ولم يلاحظ الناس بداية عند وضعها فوق العامود الصخري وسط ميدان المحطة نمو الساعة لأنها كانت تنمو في هدوء.

- 5 -

في الصباح الباكر عدت إليها في زيارة اطمئنان. من البعيد استطاعت عيني رؤية الساعة فوق النصب الشامخ. دقات الثواني وتحركات العقارب تصدر نغمات يسمعها كل من في الميدان من ركاب المواصلات العامة والخاصة والبائعين وأصحاب المحال التجارية وقد استطاع بعض الناس اكتشاف

تزايد حجم الساعة يوماً بعد يوم؛ فأصبحت حديث المدينة الذي وصل بعضه إلى الصحفيين الذين جاءوا لمراقبتها وملاحظة نموها ليكتبوا عنها في الصحافة العالمية، مما دفع الوفود إلى ميدان المحطة للتطلع إليها، جاءوا بكاميراتهم يلتقطون صورها ويحسبون نموها، ووضعت ساعة جيب جدي في برامج الشركات السياحية ضمن المعالم الأثرية والسياحية بالمدينة.

نصبت الخيام في حديقة الميدان للذين يريدون مراقبة حجم النمو اليومي فعمت الفوضى بالميدان مما استدعيت قوات الأمن للمجيء؛ لكنها فشلت في تنظيم الجماهير، ففرقتهم بعيداً عن الميدان. ثم صدرت البيانات والمنشورات والأحاديث الإذاعية عن هذه الساعة السحرية،. وأجرت أجهزة الإعلام اللقاءات معي حيث انصبت معظم أحاديثهم عن السيرة الذاتية لهذه الساعة. كيف حصلت عليها؟ متى بدأت في النمو؟

قابلت كل من أراد مقابلتي وأجبت على كل الأسئلة بقدر معرفتي وعلمي. لم أكذب في أحاديثي الصحفية والإذاعية كما يفعل الفنانون المشهورون. لقد قلت كل الصدق. وصدرت الصحف المسائية والصباحية متصدرة صفحاتها الأولى صورتي بأحجام مختلفة جوار ساعة جيب جدي بميدان المحطة. رأيت نفسي على شاشات التلفاز فبدأ الناس في المدينة يحفظون صورتي. كلما ذهبت إلى أي مكان يشيرون بأصابعهم نحوي

صائحين باسمي. حسن الساعاتي. حسن الساعاتي. أي مجد وأي شهرة أهديتها ليّ يا أبي حينما ملكتني ساعة جدي المدهشة.

– 6 –

بعد أسابيع بدأت الشكوى من الساعة تتصدر الصحف. أرسل الناس الشكاوى إلى المسؤولين عما أصابهم من أذى ساعة ميدان المحطة؛ فدقاتها المدوية تكاد تصم الآذان حين تنطلق معلنة عن الوقت. دقاتها أكثر قوة من انطلاقات مدفع، تحركات الثواني يمنع الناس من النوم بسبب دقها المنتظم بقوة. وكثرت طلبات الصيدليات لأدوية علاج الأذن والصداع والمهدئات والمنومات. كما اشتكى المسؤولون من الساعة التي تتضخم في السماء فتحجب الشمس عن المدينة. هنالك وقع الحاكم في بحيرة الحيرة لحجب الشمس ومنع الضوء والضياء وإغراق المدينة في الظلام. ذهبت إلى ساعة جدي أتطلع إليها فلم أستطع النظر واقفاً. اضطررت للنوم على ظهري فوق الأرض لمراقبة الساعة جيداً. إنها كبيرة جداً. أكبر من كل شيء في الفضاء. لقد أصبحت المدينة تعيش تحت مظلة الساعة فانطلقت أحاديث الناس والإذاعات ووكالات الأنباء العالمية تتحدث عن المدينة الغارقة في ظلام ساعة ميدان المحطة طالبين بعودة الشمس للمدينة وإزالة الضوضاء والإزعاج الذي تسببه الساعة للأهالي من جراء صوت رنين جرسها وسير

ثوانيها. وحفاظاً على البيئة من التلوث السمعي. وموت الحياة للظلام الدائم للمدينة. اتخذت الشرطة قراراً بمنع الناس من الاقتراب من ميدان المحطة حفاظاً على حياتهم. واجتمعت الهيئات الرسمية، مجلس الوزراء البرلمان، مجلس الشورى، والمجلس الشعبي لوضع حل لهذه المشكلة؛ فاستطاعوا الاتفاق على اتخاذ قرار واحد بإزالة الساعة من ميدان المحطة والتخلص منها. أصابني الهم لقرار المسؤولين ومندوبي حماية البيئة فهبطت دموعي حزناً على ساعة جدي.

ترى ما الذي سيفعله جدي حينما يعلم بأنني تسببت في إهانة ساعته وفشلي في المحافظة عليها كما أوصاني أبي. قررت الإقامة في شارع حسن الساعاتي فوق الأرض لا أغادرها. أراقب الساعة في كل ثواني حياتها، وأرى ما سيفعله الحاكم تجاهها. الوقت يمر والساعة تزيد من غطائها فوق المدينة فيزداد ظلامها، ويزداد رنينها قوة؛ فلم أستطع المكوث بالقرب منها. أصابني القلق والتوتر العصبي فانطلقت صرخاتي في شوارع الميدان لا أدري عن أي شيء أصرخ؛ فأنا لا أسمع صوتي من قوة صوت دقات الساعة. سرت بحذاء الحديقة. طفت حولها. رأيت رجال الأمن يحيطون بالميدان يقودهم حاكم المدينة الغاضب. رأيت أيضاً مدفعاً تجره الخيول يوجهه الجنود ناحية الساعة فوق عامودها الصخري. دق قلبي دقات كثيرة أكثر قوة من قوة دقات الساعة. أسرعت ناحية الحاكم منعني رجال الأمن. صرخت فيهم. أنا حسن الساعاتي

أريد مقابلة مولانا حاكم المدينة. سمعني من على البعد فأشار لهم بإصبعه هرولت إليه. سألته عما سيفعله بساعتي. هز رأسه أسفاً دون أن ينبس بكلمة ثم ابتعد مع رجاله بعيداً عن الحديقة. وصدرت الأوامر من خلال مكبرات الصوت بإبعاد الناس عن الميدان وغلق باب محطة السكك الحديدية لعدم خروج المسافرين في هذا الوقت حرصاً على سلامتهم. ظللت بالحديقة أتابع ما يجري في ذهول قاتل وضعوا قريباً من العامود الصخري. ظل ثلاثة رجال من قوات الأمن بخوذاتهم ودروعهم وملابسهم الآمنة جوار المدفع. ولا شيء آخر سواي. عمّروا المدفع بإحدى الطلقات. بدأوا تصويب قذيفتهم صوب الساعة. أسرعت إليهم. سألتهم في بلاهة عما سيفعلونه. أخبرني أحدهم في شماتة.. تفجير ساعة ميدان المحطة للتخلص منها حرصاً على سلامة الأهالي.

صرخت في جنون رافضاً ما يفعلونه. اقتربت من المدفع. حاولوا إبعادي، لكني تشبثت بمكاني أمام المدفع أسد فوهته بجسدي منعاً لإطلاق أي قذيفة ناحية الساعة. احتضنت المدفع بقوة ورجال الأمن يحاولون إزاحتي عنه وأنا أرفض صارخاً بأعلى صوتي.. النجدة يا جدي...

